PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 60(1): 86-101

ISSN:1553-6939

DEFENSIVE ARCHITECTURE IN THE TOUAT REGION- KASBAH OF OULAD MHAMED AS A MODEL-

Labiad Mohamed [1], Bakara Benameur [2]

[1]Lecturer at the Faculty of Humanities and Social Sciences (University – Tamanghasset- Algeria), mohamedlabiad@univ-tam.dz

[2]Lecturer, at the Faculty of Humanities and Social Sciences (University - Tamanghasset - Algeria), bekkarabenameur@univ-tam.dz

Received: 12/2023, Published: 01/2024

Abstract:

While analyzing and studying the different castles in the Sahara, we deduce and understand well how life used to be like; an analysis reflecting the splendor of its builders in one hand and on the other hand the economic, social and political fields of life of that society, a society which braved and affronted nature leaving great monuments worth to be studied and protected as well. One of the region containing these great and interesting buildings and monuments is the region of Touat. Thus, the observer of the castles deduces that the region witnessed permanent and everlasting wars, the thing that is too apparent and so clear through its defensive system brought from that of the Islamic structural building. In this intervention, we try to focus on the castles in the Touat region and highlight one of its important features; its defensive structural and urban building.

key words: Kasbah - Touat - Amara - Oulad M'hamed.

العمارة الدفاعية بمنطقة توات ـ قصبة أولاد إمحمد أنموذجا ـ

الأبيض محمد[1]، بكارة بن عامر[2]

[1] جامعة تمنغاست (الجزائر)، mohamedlabiad@univ-tam.dz

[2] جامعة تمنغاست (الجزائر)، bekkarabenameur@univ-tam.dz

الملخص:

إن الدارس للقصور الصحراوية يستنتج عظمة بنائيها كما انه يستخلص الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لقاطنيها، ويرسم بذلك صورة لمجتمع أبدع وتحدى الطبيعة تاركا معالم تستحق الدراسة والمحافظة عليها، ومنطقة توات من أهم المناطق في الجزائر التي تتوفر على العديد من القصور.

فالملاحظ للقصور الصحراوية في منطقة توات يجد بأنها قد بنيت بشكل يوحي بان المنطقة كانت تشهد حروب دائمة وهذا من خلال النظام الدفاعي الذي تتمتع به ،وكذا إن أهم العناصر الدفاعية في العمارة الإسلامية تتوفر فيها والذي استوحي من النظام الدفاعي للمدن الإسلامية والقصور الصحراوية المنتشرة في الصحراء ، وفي هاته المداخلة سنحاول تسليط الضوء على القصور بمنطقة توات والتركيز على جانب عمراني لها ألا وهو العمارة الدفاعية بها وتناول عينة منها تتمثل في قصبة أولاد سيدي إمحمد بتمنطيط.

الكلمات المفتاحية: قصبة ـ توات ـ عمارة ـ أولاد إمحمد.

تمهيد:

تعتبر الصحراء الجزائرية متحفا على الهواء الطلق بما تزخر به من مواقع أثرية وخزائن للمخطوطات قل مثيلها في العالم خاصة في الفترة الإسلامية، والتي شهدت نشوء ألاف من المدن الصغيرة أو القصور في الصحراء ،وهي مدن بكل ما تحمله الكلمة من معنى ،فهي تحتوي على كل من مقومات الحياة من مساكن وأسواق، ومساجد وحتى على دار للإمارة، ووكالات تجارية بالإضافة إلى التحصينات العسكرية التي كانت تحميها من الغارات الخارجية .

ومن بين أهم المناطق التي تشكل الصحراء الجزائرية منطقة توات ، حيث تتميز بثرائها المعماري والفني المتنوع والذي تمثل بالقصور والذي تجاوز عددها300 قصر، ولقد نشأت هاته القصور على الطريق التجاري الذي ينطلق من حواضر المغرب الأقصى ومن تلمسان إلى السودان الغربي، فمعظم مساره يمر عبر الصحراء فكان لابد من نشوء هاته القصور لتكون محطات للاستراحة ولتبادل السلع وأيضا بني البعض الآخر لحماية القوافل،وكذلك انشأ بعضها من طرف القبائل المهاجرة نتيجة للظروف السياسية التي كان يمر بها شمال المغرب، وفيما يتعلق بتاريخ تأسيسها فأغلبها يعود إلى القرنين 15م و16م ،وعند استيطان القبائل المختلفة في المنطقة وبنائها للقصور عملت على حمايتها من الطامعين في ثرواتها بتحصينها بالأسوار الأبراج وحفر الخنادق، ومن بين القصور والقصبات التي مازالت تحافظ على شكلها العام قصبة أولاد إمحمد بقصر تمنطيط العتيق .

1- تعريف منطقة توات:

توات منطقة من الصحراء الجزائرية تقع في الجنوب الغربي للجزائر وهي منطقة عريقة يحدها من الشمال العرق الغربي الكبير وواد مقيدن ، ومن الجنوب يحدها صحراء تانزروفت وواد قاريت وجبال مويدرا ومن الشرق هضبة تادمايت (أنظر الخارطة رقم 01) ، وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام جغرافية شاسعة وهي قورارة في الشمال وتوات في الوسط وتيديكلت في الجنوب ، ولقد أطلق الجغرافيون على المناطق الثلاث معا اسم توات، وهي تبدأ من أعالي قصور بودة في النقطة التي ينحرف فيها وادي مسعود باتجاه الغرب فيأخذ اتجاهه من الشمال إلى الجنوب وتتشكل هذه المنطقة من أرخبيل من القصور والواحات إلى غاية رقان وتسمى بتوات الأصلية[1] ، وأهم قصورها بودة ، تيمي ، تمنطيط ، زاوية كنتة ويضاف إلى توات الوسطى قصور تسابيت جنوب دغامشة على نحو 30كلم من وادي الساورة ، وهي مجموعة من القصور تبدأ من قصر عريان الراس.

[1] محمد الصالح حوتية، توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ميلادي ، رسالة دكتراة في التاريخ الحديث جامعة الجزائر، معهد التاريخ، السنة الجامعية ، 2004، ص 06

وتتوزع قصور منطقة توات على ضفاف الوديان المعروفة واد مقيدن ، واد مسعود .... و كذلك السبخات الموجودة مثل سبخة تيميمون ، سبخة تمنطيط .... ، ويصل عددها الإجمالي ما يقارب 300 قصر[2] كون هاته الأقسام الجغرافية الثلاثة بالإضافة الى صحراء تانزروفت ولاية أدرار* وينحصر موقعها الفلكي مابين خط طول 1°شرقا و3° غربا وبين دائرتي عرض 62°و 30° شمالا[3].

2- تعريف القصر :

كلمة قصر حسب دائرة المعارف الإسلامية هي كلمة تركية " الكشك" وردت في القرآن الكريم كلمة قصر عدة مرات أحيانا مفردة، وأحيانا بصيغة الجمع " قصور"، وأحيانا يقصد بها القصور الموعودة في الجنة[4]، حيث يقول الله سبحانه وتعالى **((واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ....))**[5] ، وكذلك في قوله **((تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك فصورا))**[6]

وتتميز كذلك القصور الصحراوية بموقعها الاستراتيجي حيث نجدها فوق الجبال أو على سفوحها أو على الهضاب الصخرية الصلبة، كما أنها تتواجد بالقرب من الأراضي الصالحة للزراعة والمجاري المائية.

والقصر يحاط بسور يوجد به مدخل واحد فقط في أغلب القصور ومنها في منطقة توات ويدعى " فم القصر"، ويدعم ببرج أو عدة أبراج للمراقبة أما فيما يخص التسميات فغالبا ما تنسب إلى ولي صالح مثل قصر سيدي سليمان أو إلى القبيلة والجنس المستقر به ،مثل قصر أولاد الحاج أو أولاد يعقوب ، أوالى أسماء الاتجاهات كالقصر القبلي أو الظهراني ... أو أسماء الوصف كالقصر الجديد أو القصر الكبير[7] ، والسبب الرئيسي من بناء القصر هو تخزين المنتجات الغذائية للقبائل الرحل أو القبائل المتاخمة له لان أغلب القصور الصحراوية قد نشأت أصلا عند طرق مرور القوافل التجارية، والمسافرين والحجاج التي تخترق الصحراء ، وبعضها أسست لتكون محطات تجارية حيث نجد فيها الراحة والمأوى والطعام، أما النسيج العمراني للقصور فهو قائم على تقاليد حضارية ناتجة عن تفاعل عدة عوامل وهي مستوحاة من الدين الإسلامي الحنيف الساعي إلى تطبيق المقاصد الشرعية وهي حفظ النفس والعرض والمال ،لذلك فإن القصور الصحراوية قد بنيت بشكل يحقق هاته الأغراض[8] .

وإضافة إلى المقاصد الشرعية فإن القصور الصحراوية بنيت لتقي سكانها تقلبات المناخ وخاصة أن البيئة التي بنيت فيها معروفة بالحرارة الشديدة والزوابع الرملية ، حتمت على مصمميها التماشي مع هذا المناخ

[2] محمد بن سويسي ، العمارة الدينية الإسلامية في توات تمنطيط نموذجا ، رسالة ماجستير ، معهد الآثار ، جامعة الجزائر 2008، ص 06
[3] جمعية الدراسات والأبحاث التاريخية ، دليل ولاية أدرار ، بمناسبة انعقاد ملتقى الزوايا ، 2000، ص 2
[4] محمد ابن منظور، لسان العرب ، الجزء 11 ، نسخة علي منيري ، ط1، دار إحياء التراث العربي 1408هـ 1988م ص 55
[5] الأعراف، الآية 74
[6] الفرقان، الآية 10
[7] علي حملاوي ، قصور منطقة جبال عمور (السفح الجنوبي) ، مذكرة دكتراة دولة ، الجزائر ، 2001، ص 59،60
[8] فرج محمود فرج ،إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984 ،ص19

لذلك فإنها تعتبر إبداعا هندسيا ، استطاع أن يثبت في وجه تقلبات الزمن وأن يؤمن لسكانها الأمن من الأخطار الطبيعية والبشرية المتنوعة [9].

3- القصر والقصبة في العمران الصحراوي:

القصبة هي عبارة عن قلعة يحيط بها سور شيد بطريقة دفاعية لتستعمل كمأوى للسكان عند نشوب حرب أو غزوة من قبائل خارجية، ومن الناحية العمرانية تتألف من سور خارجي بأركانه الأربع، وهي الجزء الأهم من المدينة والقلب النابض لها ، وهي أيضا تمثل محل إقامة العائلات المهمة أما من الناحية العمرانية فهي تتألف من سور خارجي به أبراج للمراقبة والحراسة كما تتألف من مدخل وحيد ، وقد تحتوي على مسجد صغير للصلوات الخمس وتعليم الصبيان[10].

والقصبة هي بناية كبيرة تتخذ في الغالب شكلا مربعا ، كما تتشكل من عدة طوابق يخصص الأرضي منها للبهائم والدواب ،أما البقية فهي للسكن وبقية الشؤون المعيشية الأخرى كما تتميز القصبات بارتفاع نسبي في أركانها الأربعة ، فيما يشبه غرفا مستقلة (الأبراج) والقصبة قد تكون مشتركة بين عائلتين أو أكثر مع وجود باب خارجي وحيد ، كما أنها تشيد في الغالب من مزيج من الطوب والحجارة، وتطلى بعد ذلك بالطين ، حيث يراعى في بنائها المتانة والجودة ، مما يمكنها من الصمود لدهور عديدة ، وهي بهذا تأخذ طابعا حربيا[11].

والقصبة في المناطق الشمالية في الجزائر هي المدينة القديمة، المخصصة لسكن الأهالي أما في العمران الصحراوي القصبة هي جزء من القصر، فهناك من القصور من يتكون من مجموعة من القصبات والتي تشكل فيما بينها قصرا واحدا[12].

وتختلف القصبات ودورها بين مناطق توات وقوراة ، حيث أن في منطقة قورارة ذات الغالبية الزناتية البربرية نجد أن القصر والقصبة مساويان لبعضهما من حيث الوظيفة ، والازدواجية في اللفظ مردها إلى أن القصبة هي النواة الأولى للقصر ومنه تطور ، حيث أن الأهالي بنو في بداية الأمر القصبة، وحين تزايد عددهم كان انتقالهم طبيعي لعمران أكثر ، مما أفرز القصور في شكلها الحالي [13] (المخطط رقم 04) .

أما في منطقة توات والتي يغلب عليها العنصر العربي، نجد أن القصبة هي مسكن العائلة الثرية، أو هي مسكن لعدة عائلات قريبة في نسبها من بعضها البعض .

4- قصبة أولاد إمحمد :

[9] علي حملاوي ، القصر بالجنوب الجزائري مفهومه ومكوناته ، ع 10 ، مطبعة سومر بئر خادم ، الجزائر ، 1422هـ / 2001م ،ص 32 -33

[10] محمد بن سويسي ، المرجع السابق ، ص 37

[11] نور الدين بوعبد الله ، منطقتي توات الوسطى والقورارة دراسة أثرية عمرانية ومعمارية أنموذجية ، رسالة ماجيستير, معهد الاثار, جامعة الجزائر ، 2008، ص 57

[12] محمد بن سويسي ، المرجع السابق ، ص 37

[13] نور الدين بو عبد الله ، المرجع السابق ، ص 57

أ/ موقع وتاريخ قصبة أولا إمحمد :

1/ موقع القصبة:

قصبة أولاد سيدي إمحمد من القصبات المشكلة لقصر تمنطيط العتيق (أنظر المخطط رقم 01)، وتمنطيط اليوم بلدية تقع جنوب مدينة أدرار وتبعد عنها 10 كلم ، و تعتبر قصبة ولاد سيدي إمحمد من أهم قصبات قصر تمنطيط حيث تعتبر النموذج الوحيد تقريبا الذي بقي صامدا في وجه عوامل التلف المختلفة طبيعية كانت أم بشرية، ومن خلال شكلها نستطيع التعرف على النمط العمراني السائد في قصبات تمنطيط بل قصور وقصبات منطقة توات ككل.

تقع قصبة أولاد إمحمد في شرق تمنطيط ، ويحدها من الشمال قصبة أولاد إهمالي ومن الجنوب قصبة أولاد يعقوب ، ومن الجهة الغربية تحدها قصبة تايلوت أما من الجهة الشرقية فتوجد مساكن من ضمنها الخزانة البكرية ، ومن خلال هذا يتضح لنا أن قصبة أولاد إمحمد تقع بين ثلاثة قصبات أخرى، وبهذا فهي تشكل فيما بينها لحمة دفاعية واحدة في حال الأخطار الخارجية ،ونجد هذا في الكثير من القصور الصحراوية وخاصة في منطقتي توات وقورارة ،وكذلك في قصور وادي ميزاب ، وكان لكل قصبة من هاته القصبات نظامها الدفاعي الخاص بها .

2/ تاريخ القصبة :

لا يوجد تاريخ مضبوط لقصبة أولاد إمحمد كغيرها ممن قصبات تمنطيط بل وقصور المنطقة ككل ، وهذا لعدم وجود مصادر مراجع تحدثت عن تاريخها بما في ذلك المخطوطات التي ركزت على الجوانب الدينية واللغة والطب والقضاء .. وأهملت الجانب التاريخي لقصور المنطقة ، ووجدت إشارة وحيدة لدى الكاتب الفرنسي "Echallier " إذ يرى بأن القصبة قد أسست في حوالي القرن 10هـ - 16م.

بـ/ اختيار موقع قصبة أولاد إمحمد :

اهتم مؤسسو قصبة أولاد إمحمد باختيار موقع يستجيب للشروط المعروفة في بناء المدن الإسلامية الأولى كالكوفة والبصرة والقيروان .... ،وحتى المدن اللاحقة كفاس وتيهرت ومراكش ... ،والتي تتمحور حول الموقع المحصن طبيعيا، وتوفر الماء وملائمة المناخ، ووجود الأراضي الخصبة والمراعي، والغابات، ووقوعها على الطرق التجارية.

وقد لخص إبن خلدون هذه الشروط بقوله **(..... ويجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها ، وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها ، فأما الحماية من المضار فيراعى أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار ، وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل ، وإما**

باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها بعد العبور على جسر ويتضاعف امتناعها وحصنها ، ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض ، فإن الهواء إذا كان راكدا خبيثا ، أومجاورا للمياه الفاسدة أو لمنافع متعفنة أو لمروج خبيثة ، أسرع إليها العفن من مجاوزتها ، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لامحالة ...)[14].

ومن شروط اختيار موقع المدن على حسب ابن خلدون توفر المزارع ويقول في هذا **(.... إن الزرع هي الأقوات ، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها ، كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله ، ومن ذلك الشجر للحطب في البناء ، فإن الحطب مما تعتم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ ، والخشب ضروري لسقفهم وكثير ما يستعمل فيه الخشب من ضروریاتهم ...)**[15].

ولقد توفرت هاته الشروط التي ذكرها ابن خلدون في قصبة أولاد إمحمد ،فهي من الجانب الدفاعي تستمد قوتها في قربها من القصبات المجاورة، لتسهل عملية الدفاع المشترك عند طروق خطر ما ، ولعل اقتراب القصور من بعضها تقليد سارت عليه قبائل البربر التي عمرت بلاد المغرب ، حيث أن الظاهرة نفسها نجدها في المناطق الصحراوية كقصور ورقلة ، ووادي ريغ ، وقصور بلاد تيكورارين وغيرها من مواطن بربر زناتة على الخصوص ، ولا شك أن قرب القصور من بعضها أملته الطبيعة الصحراوية القاسية التي أجبرت المعمرين لها على عدم الابتعاد عن بعضهم لاحتياج بعضهم إلى بعض أثناء الأخطار والعمل سويا للتغلب على قساوة البيئة الصحراوية ، ولتكون في مأمن من الاعتداءات والغارات الخارجية ، وهو مالا يتوفر لها لو ابتعدت عن بعضها[16].

كما أن قصبة أولاد أمحمد تحتوي على العناصر الضرورية للحياة ومن أهمها الأراضي الزراعية، فهي وكل قصبات تمنطيط تحتوي على بساتين شاسعة، كانت تتم فيها زراعة أشجار النخيل بشكل أساس بالإضافة إلى الحبوب والخضروات والفواكه ... ، وكذلك توفرت المراعي في ضفاف الوديان كوادي مسعود المجاور لقصبات تمنطيط .

جـ/ الوصف العمراني لقصبة أولاد إمحمد :

لقد حافظت قصبة أولاد إمحمد على مخططها الأصلي تقريبا ، ولم تخضع لأي تغييرات وجاء شكلها مربعا ، يحيط بها سور يكتنفه أربعة أبراج ركنية مدمجة داخل السور(أنظر المخطط رقم 02) ، كما فتح في سورها مدخل وحيد يقع في وسط الجزء الشرقي منه (الصورة رقم 01) ، وتميز هذا المدخل بمساره المنكسر وهذه ميزة في كل العمائر الصحراوية بل والإسلامية ككل ، وبعد دخولنا للقصبة نجد شارعان رئيسيان واحد منهما يتجه إلى الجهة الشمالية من القصبة والآخر يقابله في الجهة الجنوبية ، وهي شوارع مسقوفة (ومنها

[14] عبد الرحمان بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، اعتنى به أبو صهيب المكرمي، بيت الأفكار الدولية ، د ـ ت ، ص 224

[15] نفسه ، ص 224

[16] يحي بوراس ، العمارة الدفاعية بوادي ميزاب نموذج قصر بني يزجن ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر، الجزائر ، 2002، ص 11

تتفرع أزقة صغيرة غير نافذة ، واحتوت القصبة على عدد من المنازل منها ما هو مأهول الأخرى خالية من السكان وقد تميزت بالبساطة في التصميم كسائر المنازل في القصور الصحراوية وهي مكونة من طابقين، وقد زودت القصبة ببئر يقع في الجهة الشرقية كان يستعمل في حالة الحصار (الصورة رقم02) ، وقد طليت بعض أجزاء سور القصبة بالجص وهذا للحفاظ عليها من التصدعات والشقوق ولا تحتوي هاته القصبة على المسجد والسوق.

د- المنظومة الدفاعية لقصبة أولاد إمحمد

لقد حرص بناؤوا قصبة أولاد إمحمد على تحصين القصبة حماية لها من الأخطار الخارجية وتتشكل منظومتها الدفاعية من:

أ/ السور :

سور المدينة وهو البناء المحيط بها والجمع أسوار يطوف بالبيت أو البلدة[17] ، أما في المصطلح الأثري فإن السور هو جدار عالي ضخم يحيط بالبناء لحمايته[18]، وهو كذلك نوع من التحصينات الدفاعية يأخذ شكل حاجز ترابي أو خشبي ، أو حجري[19].

والأسوار في القصور الصحراوية على نوعان فمنها ماهو مشكل من الجدران الخارجية للمنازل، ومنها ما هو منفصل ، واستخدام أظهر المساكن المسندة بدعامات ظاهرة معمارية عرفت في كثير من القصور الصحراوية، وهذا في مناطق فزان وجبل نفوسة بالجنوب الليبي، وقصور جنوب تونس، وقلاع الأوراس بالجزائر، و قصر تاجموت والحويطة بالأغواط ، وتماسين وتمرنة القديمة والجديدة بمنطقة وادي ريغ[20] .

وعلى هذا الأساس جاءت أغلب الأسوار المحيطة بقصور منطقة توات حيث إحتوت أغلبها على سورين واحد خارجي والآخر مشكل من جدران المنازل ، وهناك منها من يحتوي على سور واحد فقط مشكل من جدران المنازل فقط لوحده .

ويحيط بقصبة أولاد إمحمد سور متصل غير متقطع من جهاته الشمالية والجنوبية ، أما من الجهة الغربية فهو مشكل من جدران المنازل ، وقد فتحت به نوافذ حديثا (أنظر الصورة رقم 03) وهو بمثابة الحاجز الواقي من الإعتداءات الخارجية التي يمكن أن تتعرض لها القصبة (أنظر الصور رقم 04).

[17] أحمد بن محمد بن علي المقري البيومي ، المصباح المنير ، صححه على النسخة المطبوعة بالمطبعة الأميرية مصطفى السقا ، طبع بمطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده ، مصر ، 1950ص 315

[18] عاصم محمد رزق ، معجم مصطلحات العمارة والفنون ،مكتبة مدبولي للنشر والتوزيع،مصر، 2000 ص 153

[19] الموسوعة العسكرية ، ج4، ط2 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1990، ص 458

[20] يحي بوراس ، المرجع السابق ، ص 35

وللسور مسقط مربع تقريبا ، وهذا بفضل الأرضية المستوية للموقع يبلغ طوله من الجهة الجنوبية 64م ومن الجهة الشمالية 67م ، أما من الجهة الغربية 51م ومن الجهة الشرقية 55م ، ووصل إمتداده في المجموع 237م .

ويبلغ ارتفاع السور حوالي 6م ، أما عن سمك السور فهو موحد بين جميع أجزائه ويبلغ في القاعدة 1،65م ، ثم يأخذ في التقلص التدريجي والتراجع كلما زاد في الارتفاع ، ليصل سمكه في القمة إلى 0.60م وهذا التقليص يساعد السور على عدم التهدم.

بـ/ الأبراج :

الأبراج والبروج مفردها برج وهي بروج سور المدينة والحصن وهي بيوت تبنى على السور وتسمى بيوت لبنائها على نواحي أركان الحصن أو المدينة[21] ،ويعد البرج من العناصر الدفاعية الأساسية في مجال الاستحكامات العسكرية ، وقد عرف عدة أشكال منها الأسطواني وذات المسقط المستطيل أو القريب من المربع ومنه المتعدد الأضلاع[22].

ويكون البرج أحيانا ذو بدن ممتلئ يعلوه سطح تحيط به بفتحات للرمي ، وأحيانا وأحيانا يكون بدنه فارغ ومسقوف ، ومزود بسلم يستعمل للصعود الذي يخصص للحراسة ، وللأبراج فائدة كبيرة حيث تساعد على رصد العدو عن بعد ، وقد كانت لها أهمية كبيرة حتى الوقت الذي تغيرت فيه الأفكار الحربية وتطور المدفعية ، إلا أنها لازالت تحافظ على دورها العادي في المراقبة خصوصا في الثكنات العسكرية[23].

وتعتبر الأبراج المخروطية والمستطيلة الأكثر شيوعا في عمارة قصور إقليم توات والتي جاءت ملاصقة للأسوار الخارجية ومزودة بصف أو اثنين من المزاغل

ولقد حرص المعماريون في قصبة أولاد إمحمد على تزويد سور القصبة بأبراج وعددها 04 أبراج في الأركان ثنائية الشكل ، وتتميز كون واجهاتها مائلة برفق نحو الأعلى فهي على شكل الهرم وهذه الظاهرة المعمارية موجودة في كل أبراج قصور توات ، وهي كذلك معروفة منذ القدم وقد أوجدت جدلا بين الباحثين حول أصلها فمنهم من رأى بأنها ذات تأثيرات مصرية قديمة حيث شبهت بأبراج مداخل المعابد المصرية[24] ، ومنهم من رأى بأنها ترجع إلى أصول محلية موجودة في ثقافة المغاربة[25]، ولهذا أنها وجدت في العديد من المناطق المغربية خاصة في الصحراء إذ وجدت في واحة سيوة بمصر، وجبال نفوسة بليبيا ، وفي عدد من

[21] محي الدين الفيروزبادي ، القاموس المحيط ، ج1، دار الخليل ، بيروت ، د ـ ت ، ص 178
[22] يحي بوراس ، المرجع السابق ، ص 44
[23] نفسه ، ص 44
[24] M,E,Loust << L'habitation chez les ,transhumants du Maroc central>> ,Hespris /1 T,XVIII, p193
[25] M,Mercier, <<Notes sur une architecteur berbère Saharienne>> ,Hsperis,3e et 4e/2 trim,1928, P429

قصور الصحراء الجزائرية ، كبني عباس ، وقصور جانت ، والأغواط[26] ، وكذلك عرفت في /آذن بلاد السودان الغربي ومالي والنيجر[27].

وهناك عدد آخر من الدارسين يرون بأن هذا الشكل هو وظيفي في الأساس، وهو ناتج من المواد المستعملة في البناء، حيث أنه كلما مالت الجدران نحو الداخل واقتربت من نقطة الارتكاز ازدادت مقاومة وثباتا[28]، وهذا الرأي هو الأرجح فمواد البناء هي من تملي شروطها على المعماري وفيما يتعلق بمقاسات أبراج قصبة أولاد امحمد 3.90م بالنسبة لطول قاعدة البرج و5.40م لعرضها ثم يتقلص طوله الى 3.20م وعرضه الى 3م ويبلغ ارتفاعها الى6 م، وأبراج هاته القصبة مازالت في حالة جيدة من الحفظ (أنظر الصور رقم 05) ،كما أن الأبراج تحتوي عل أبواب للدخول بمقياس 1.80م 0.78وم ،(انظر الصورة رقم 06) .

وسور القصبة وأبراجها استعملت فيهما نفس مادتي البناء والمتمثلة بالحجارة الجيرية ومادة التبشمنت

جـ / المدخل :

المدخل هو باب المدينة أو واجهة المسجد أو القصر أو المنزل وقد يكون الباب بمصراع واحد أو اثنين [29] ، وقد اكتست أهمية بالغة منذ القدم وهذا لأنها تربط سكان المدينة أو القصر بالعالم الخارجي وأيضا لكونها نقاط يمكن أن يتسلل منها أي طارق للمدينة ولهذا نجد أن الإنسان قد عمل منذ القدم على تحصينها لتكون في مأمن من أي هجوم[30].

وتتنوع المداخل على حسب أماكن تواجدها ، حيث نجده يفتح في قاعدة البرج تعلوه فتحات للرمي ، وهذا ما نراه في قصور مزاب وبعض القصور الصحراوية الأخرى[31].

أما فيما يتعلق الأمر بقصور منطقة توات فهي تحتوي في الغالب على مدخل وحيد ، ويرجع هذا لصغر مساحتها فهي لا تستدعي أبواب عديدة ، وهذا الأمر ينطبق على قصبة أولاد إمحمد فهي تحتوي على مدخل وحيد فتح في السور الشرقي للقصبة ،وهو عبارة عن فتحة مستطيلة ارتفاعها 2,50م ويبلغ عرضه 1.50م ، وهو يتوسط دعامتين هرميتي الشكل سمك كل واحدة منهما 1.27م (أنظر الصورة رقم07).

د/ المزاغل :

المزاغل لغة هي من الفعل زغل ، وزغل الشيىء زغلا وأزغله أي صبه دفعة واحدة[32]، وقد سميت بهذا تبعا مرد لوظيفتها حيث تصب منها النبال دفعة واحدة على المهاجمين وكأنها صب للماء

[26] علي حملاوي ، قصور جبال عمور ، المرجع السابق، ص 100، 101

[27] M,MERCIER , OP ,CIT, P427

[28] Alger P26, n°14 EMILIO, TEMPIO, le Mzab ,une Modèle d"achitectur Spontanée , Edjezair

[29] يحي وزيري ، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية ، الكتاب الثاني ، القاهرة ، 1993،ص11

[30] ممفورد لويس ، المدينة على مر العصور أصلها وتطورها ومستقبلها ، ترجمه إبراهيم نصحي ج1، مكتبة الأنجلو المصرية ،القاهرة، 1964،ص118-119

[31] حملاوي علي ، قصور جبال عمور ، المرجع السابق ، ص 191

دفعة واحدة لصد الأعداء من التقدم نحو الهدف وبذلك سهولة القضاء عليهم دون اشتباك[33]، وهي من الناحية الاصطلاحية تلك الفتحات الصغيرة الضيقة من الخارج الموجودة في أسوار المدن والأبراج والقلاع ويستخدمها المحاربون لرمي السهام على المهاجمين ، وإلى الجانب الأمني فللمزاغل دور آخر وهو إدخال النور والهواء للأزقة داخل القصر.

وقد تم تزويد الأبراج وكذلك السور على طول امتداده بفتحات للرمي ، تبتعد عن بعضها بمسافات مختلفة حسب أهمية الموضع من السور أو البرج، ولكن عددها يزيد كلما اقتربنا من مدخل القصبة ، ويصل اتساعها في المتوسط من الخارج إلى 0,7م يقدر الداخل بحوالي 0,35م (أنظر الصورة رقم 08)

هـ/ الخندق :

الخندق ، الوادي ، الحفير ، وخندق حوله ، حفر خندقا [34]، جمعها خنادق ، والخندق بفتح الخاء وسكون النون هو عبارة عن أخدود عميق مستطيل يحفر في ميدان القتال ليتقي به الجنود الهجوم ، ويحفر حول أسوار المدن والقلاع والمعسكرات الحربية لحمايتها وإعاقة المهاجمين لها ، وقد يكون فارغا من الماء أو مملوء به[35] ،ويكون محفورا في الأرض بأعماق متفاوتة لتأمين وحماية المقاتلين من أنظار العدو ونيرانه .

وقد ظهر الخندق في التاريخ الإسلامي بالمدينة المنورة وهذا في غزوة الأحزاب حيث حفر الرسول صلى الله عليه وسلم خندقا لتحصينها من المشركين وكانت هذه الفكرة للصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه حيث قال **(بارسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا)**[36].

وعرفت القصور الصحراوية الخندق مثل قصر الأغواط وقصر تاويالة وقصر عين ماضي وقصر تاجموت[37].

ويعتبر الخندق من مميزات عمارة القصور في منطقة توات، فأغلب قصورها إن لم نقل كلها تحتوي على خندق ويدعى محليا بأحفير ، وقد اندثرت العديد من هاته الخنادق بفعل الردم المتعمد أو بسبب ردمها بواسطة الرمال وهذا ماوقفنا عليه في قصبة أولاد إمحمد فهي على حسب روايات السكان كانت مزودة بخندق من جهتها الشرقية التي يوجد بها المدخل

الخلاصة

لقد كانت منطقة توات مقصدا للنازحين من بلدانهم نظرا للأوضاع السياسية التي كان يعيشها شمال المغرب مما جعلها مطلبا للعاصين ،ومن الطبيعي أن يلازمهم الخوف مما يلجئهم إلى تحصين القصور تحسبا

[32] محمد إبن منظور ، ص 400
[33] نور الدين بن عبد الله ، المرجع السابق ، ص 146
[34] محمد ابن منظور ، المصدر السابق ، ص 400
[35] عاصم محمد رزق ، المرجع السابق ، ص 173
[36] خالد عزب ، فقه العمارة الإسلامية ، دار النشر للجامعات ، مصر ، ط1، 1977 ، ص9
[37] علي حملاوي ، قصور جبال عمور ، المرجع السابق ، ص 173

لأي خطر يداهمهم ومن خلال ملاحظتنا للقصور في المنطقة رأينا أنها تستجيب للشروط الضرورية في تأسيس المدن، من حيث القرب إلى المراعي ،وتوفر الأراضي الصالحة للزراعة وكذلك الحصانة التي تجعلها صعبة المنال.

لتحصين قصور المنطقة تم اللجوء إلى اتخاذ الأسوار المدعمة بالأبراج إضافة إلى المزاغل وحفر الخنادق.

أما السور في المنطقة فهو متصل يحيط بكامل القصر، وكذلك تتميز الأسوار بارتفاعها مما يدل على كثرة الحروب والنزاعات قي المنطقة ،وهو مزود بمزاغل على مسافات متقاربة ، ودعمت بالأبراج الركنية ذات المسحة الهرمية وأغلبها من طابقين وفتحت كذلك فيها مزاغل للرمي .

استخدمت في تشييد قصور المنطقة ما هو متوفر من المواد في الطبيعة، كالحجارة الكلسية والطين الذي أضيفت له مواد أخرى كالملح والمواد العضوية بالإضافة غلى الأخشاب والتي كان مصدرها أشجار النخيل.

استعمل المعماري طرقا مختلفة في البناء وهذا حسب مادة البناء المتوفرة.

تعاني أغلب القصور الإهمال واللامبالاة وأدى هذا لتعرض الكثير منها للهدم المتعمد، وهذا لقلة الوعي بأهميتها لهذا علينا دق ناقوس الخطر لنلحق ما تبقى من هذا الكنز الأثري الذي يمثل حضارة كبيرة.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة

1/ القرآن الكريم

2/ المصادر

- ابن خلدون عبد الرحمان ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، اعتنى به أبو صهيب المكرمي، بيت الأفكار الدولية ،د- ت.

- ابن منظور محمد، لسان العرب ، الجزء 11 ، نسخة علي منيري ، ط1، دار إحياء التراث العربي 1408هـ 1988م

- البيومي المقري أحمد بن محمد بن علي ، المصباح المنير ، صححه على النسخة المطبوعة بالمطبعة الأميرية مصطفى السقا ، طبع بمطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده ، مصر ، 1950.

- الفيروزبادي محي الدين ، القاموس المحيط ، ج1، دار الخليل ، بيروت د- ت.

2/ المراجع

- الموسوعة العسكرية ، ج4- ط2 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1990،

- حملاوي علي ، القصر بالجنوب الجزائري مفهومه ومكوناته ، ع 10 ، مطبعة سومر بئر خادم ، الجزائر ، 1422هـ / 2001م

- فرج محمود فرج ،إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1984.

- لويس ممفورد ، المدينة على مر العصور أصلها وتطورها ومستقبلها ،ترجمه إبراهيم نصحي ج1، مكتبة الأنجلو المصرية ،القاهرة، 1964

- محمد رزق عاصم ، معجم مصطلحات العمارة والفنون ،مكتبة مدبولي للنشر والتوزيع،مصر، 2000

- وزيري يحي ، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية ، الكتاب الثاني ، القاهرة ، 1993.

- عزب خالد ، فقه العمارة الإسلامية ، دار النشر للجامعات ، مصر ، ط1، 1977

3/ الرسائل الجامعية

- بن سويسي محمد ، العمارة الدينية الإسلامية في توات تمنطيط نموذجا ، رسالة ماجستير ، معهد الآثار ، جامعة الجزائر 2008

- بوعبد الله نور الدين ، منطقتي توات الوسطى والقورارة دراسة أثرية عمرانية ومعمارية أنموذجية ، رسالة ماجيستير، معهد الاثار، جامعة الجزائر، 2008

- بوراس يحي ، العمارة الدفاعية بوادي ميزاب نموذج قصر بني يزجن ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر، الجزائر ، 2002

- حملاوي علي، قصور منطقة جبال عمور (السفح الجنوبي) ، مذكرة دكتراة دولة ، الجزائر ، 2001

- حوتية محمد صالح ، توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ميلادي ، رسالة دكتراة في التاريخ الحديث جامعة الجزائر ، معهد التاريخ ، السنة الجامعية ، 2004.

4/ الملتقيات

- جمعية الدراسات والأبحاث التاريخية ، دليل ولاية أدرار ، بمناسبة انعقاد ملتقى الزوايا ، 2000

5/ مراجع اللغة الأجنبية

- Mercier, M <<Notes sur une architecteur berbère Saharienne>> ,Hsperis,3e et 4e/2 trim,1928.

- Loust M,E << L'habitation chez les ,transhumants du Maroc central>>, Hespris /1 T,XVIII

- Alger n°14 TEMPIO, EMILIO, le Mzab ,une Modèle d''achitectur Spontanée , Edjezair.

المـلاحق:

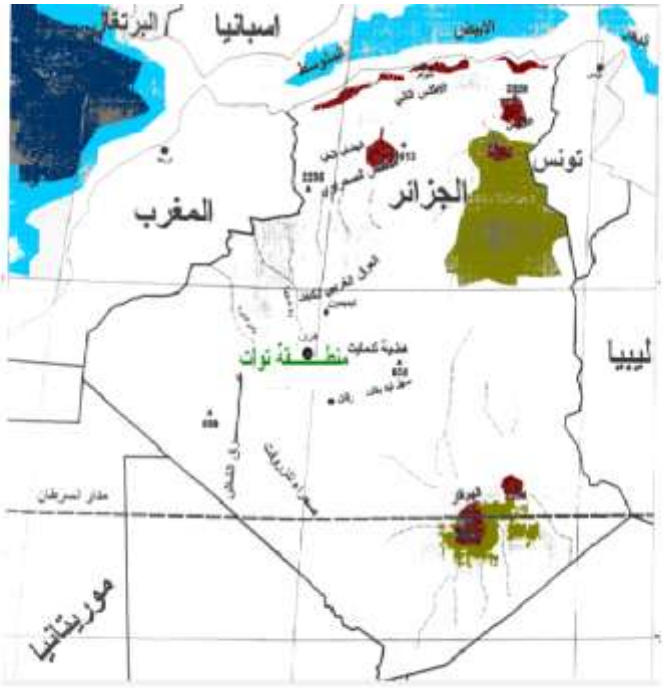

خارطة رقم 01 موقع منطقة توات في الجزائر

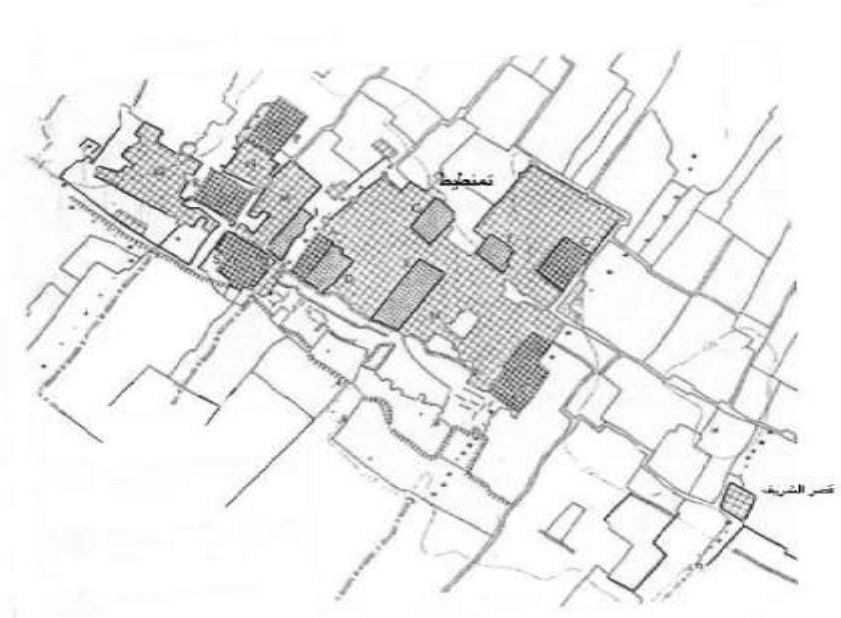

مخطط رقم 01 القصبات والأحياء المشكلة لقصر تمنطيط

فضاءات يمكن ان تمثل النواة الأولى لأنشاء تمنطيط
تجمعات سكنية استمرت مابين الوحدات المنعزلة
تجمعات سكنية ثانوية
ECHELLE 1:5000

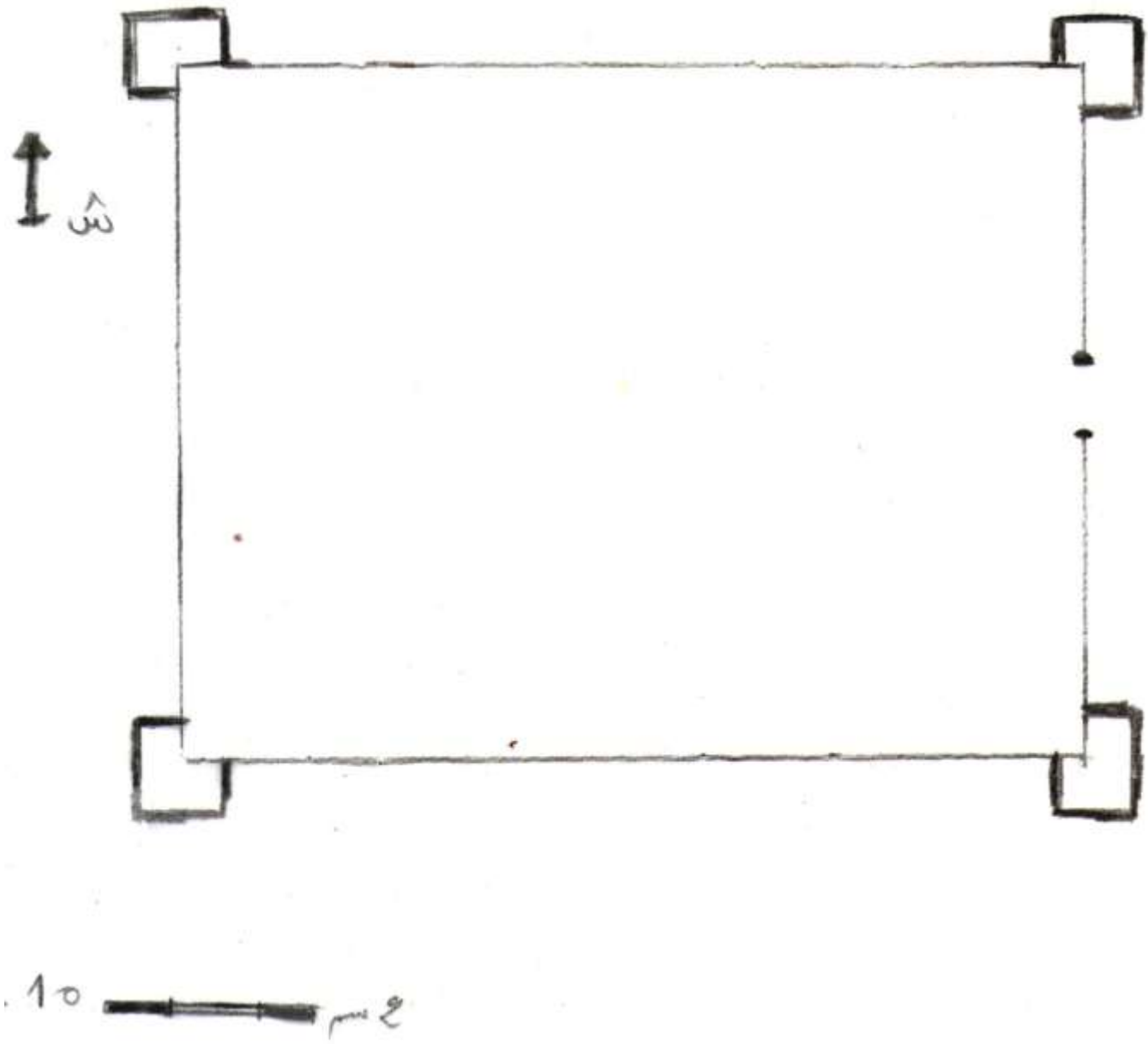

مخطط رقم 02 قصبة أولاد إمحمد

الصورة رقم 01 منظر علوي لقبة أولاد إمحمد

الصورة رقم 02 البئر التي تستعمل في حالة الحصار

الصورة رقم 03 الجهة الغربية السور وقد فتحت فيه نوافذ حديثة

الصورة رقم 04 الجهة الشرقية للسور التي تحتوي المدخل

الصورة رقم 05 أحد الأبراج

الصورة رقم 06 وجود مدخل بأحد الأبراج

الصورة رقم 07 المدخل الرئيسي

الصورة رقم 08 المزاغل